حول أصل قاسم أمين

للأستاذ محمد محسن البرازي

قرأت في العدد رقم ٢٥٥ من الرسالة الغراء مقالة الأستاذ الجليل الذي أجهل اسمه — فهو لا يوقع اسمه — وأقر بفضله وأعجب بأدبه وسعة معارفه ودقة ملاحظاته . وعنوانها « قاسم أمين ، هل كان كردياً ؟ » وكنت اطلعت قبل ذلك على قصيدة الأستاذ الجارم بك

أما بيت القصيدة الذي يشير إلى أصل قاسم أمين الكردي :

يا فتى الكرد ، كم بزغت رجالاً
من صميم الحمى ومن أعرابه

فقد كنت ، شأن الأستاذ الجليل ، استعجبت منه ومن قائله ؛ ولكن عجبي قد يختلف عن عجب الأستاذ بعض الاختلاف

تعجبت من هذا القول ، بل استنكرته ، لأن فيه استخفافاً بقوم من الأقوام ، فكأن الأستاذ الجارم ساءه الله يقول في بيته :

« على الرغم من أنك كردي ، أيها القاسم الأمين ، فقد فقت العرب ، وعلى الرغم من أنك غريب فقد سبقت أهل البلاد »

إنني لا أدري إذا كان قاسم أمين كرديّ الأصل حقاً أم عربياً . ولكني أستغظع أن ينقص أصله لأنه كردي . فالكرد الذي يشقي ويذل هو الذي يسرقه أو يجلبه أو يبيعه بيع الرقيق[1] . . .

« لهذا يجب أن نحفظ أنفسنا من ذلك الشر . . . وأن نكسب الفضيلة بكل ثمن ، وأن نبحث عن فن يساعدنا على ذلك الاكتساب ونمضي حياتنا في دراسته . . . الخ »

وتنتهي المحاورة بخرافة كما تنتهي أغلب محاورات أفلاطون . وهو يصور لنا في هذه الخرافة ما تلقاه النفوس الظالمة الشريرة من عذاب الجحيم !

فإلى اللقاء حيث أقدم لك أشخاص المحاورة وأبدأ الترجمة بعد إذ قدمت لها بتلك المقدمة

« يتبع »

محمد محسن ظاظا

(١) لعل أفلاطون يعرض هنا بمن باعه يوماً بيع الرقيق !

ليسوا من حيث المواهب والمؤهلات دون غيرهم من الشعوب . ولئن كنت أسلم مع الأستاذ الجليل ويسلم كل رجل يدين بالديمقراطية ويخضع لسلطان العقل والعلم ، بأن « المرء بفضله لا بأصله » وأن « الانسان — كما قال بديع الزمان — من حيث يوجد لا من حيث يولد » . بيد أني لا أرى مجالاً لهذا الاستشهاد بصدد أصل قاسم أمين ، لأنه ليس يزري بقاسم أمين أن يكون كردياً لا من حيث العلم والفضل ، بل من حيث النبت والأصل

فهل طيب الأرومة وكرم العنصر وقف على قوم دون قوم وعرق دون عرق ؟

إنني كما ينتقد الأستاذ الجليل من يقول من أبناء فرنسا مباهياً « أنا فرنسي ، أنا ابن الغول » آخذ أيضاً على كل من يقول من المتكلمين بالعربية : « أنا عربي ، أنا من نسل قحطان أو عدنان » بمعرض المفاخرة على غيره من أبناء العربية المستعربين ، أكراداً كانوا بالنسب ، أم شراكسة ، ألباناً ، أم صقليين

إنها العصبية تسربت إلى الأستاذ الجارم في بيته « يا فتى الكرد » والعصبية نزعة قديمة بعثت حديثاً في بعض البلاد ، كالخمها في القديم الأديان السماوية العالمية كالإسلام ، والنصرانية ، وتحاربها الآن جميع المذاهب التي ترمي إلى التقريب بين بني الإنسان وإحلال الوئام والسلام محل البغضاء والخصام

لقد كانت العصبية في الجاهلية مبدأً سائداً تقوم عليه الحياة الاجتماعية والسياسية فقد كانت الوحدة القبلية قبل الاسلام شبيهة بالرابطة تجمع بين أفراد الدولة الواحدة في عهدنا هذا . وقد بعثت العصبية من جديد في عهد بني أمية ، بالرغم من مخالفتها روح الاسلام لغاية سياسية ، خلاصتها دعم العرش الأموي ومقاومة خصوم الأمويين من آل البيت الذين كان أكثر دعاتهم وأقوى أنصارهم من غير العرب وجلهم من الفرس والاكراد

اضمحلت العصبية بعد بني أمية . ولم يعد لها أثر يذكر إلا في الأدب العربي . وخاصة في الشعر لأسباب لا محل لتفصيلها الآن أجلها تقليد الأوائل ولا سيما الجاهليين

ولئن قامت في بعض البلاد الأوربية نزعات ومذاهب تشبه العصبية العربية كالقومية . « racisme » في ألمانيا فهي تبرر عند أربابها على الأقل بأسباب حيوية لا نظير لها في البلاد العربية — ما خلا فلسطين التي نزلت بها من الصهيونية نازلة خاصة —

فقد يكون للألمان بعض العذر بأن يتسلحوا بالقومية لمناوأة اليهود . لأن اليهود يتظاهرون فى كل بلد يقيمون فيه بأنهم من صميم أهله فى حين أنهم رغم السنين والقرون تمر عليهم ، ورغم ما يفيدون من البلاد التى تلقنهم وآباءهم قبلهم من حقوق سياسية ومدنية يظلون يهوداً قومياً وعاطفياً تجمعهم جامعة قومية يهودية ، ويبقون أمة داخل أمة . على أن العصبية أو القومية — أنى كانت وفى أى زمن وجدت — إذ تتخذ شكل رجحان عرق على عرق وجنس على جنس ، ممقوتة ظالمة خاطئة ، تنقضها الفكرة الحرة ويفندها العلم وتستنكرها المثل العليا الانسانية

لقد قام الاسلام الذى يدين به أكثر العرب على أساس غير قومي، فدين الاسلام كما قلنا فيما تقدم عالمى لا قومى، ومحمد (ص) لم يرسل للعرب وحدهم بل أرسل للبشر عامة ، ولا فضل فى نظر صاحب الرسالة « لعربى على عجمى ، ولا لعجمي على عربى ، ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى » . ولكم نهى النبى (ص) عن العصبية بالتصريح ، فقال « ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتل عصبية »

فاستحقار الأقوام غير العربية بالنسبة للعرب لا يقره إذن الاسلام الذى رفع من شأن العرب وأكسبهم مجدهم الخالد

وفى نظر علماء الاجتماع والمشرعين ما خلا الألمان لا تقوم الأمة على العرق والجنس ، بل إن ما يكوّن الأمة حقاً الآن بعد أن ضعفت الرابطة الدينية ، ولم يعد الدين العنصر المؤلف للأمم ، هو الرضاء والرغبة فى العيش عيشة مشتركة فى الحاضر، مضافة إلى ذكريات ماضية مشتركة ، وآمال مستقبلة واحدة (نظرية رنان)

إذن فلا الإسلام يقر مبدأ القومية وتفوق قوم على قوم أو جنس على جنس ، ولا العلم الحديث والمثل العليا الإنسانية تؤيد هذا المبدأ وهذه النظرية

ولئن كنا نستنكر ادعاء فئة من الغربيين تفوق العرق الآرى — والكرد آريون — على العرق السامى، فاننا نأنف أيضاً من الاعتقاد برجحان السامي على الآرى . فاستحقار الأقوام غير العربية بالنسبة للعرب لا يقره الإسلام الذى رفع من قدر العرب وأكسبهم مجدهم الخالد ، ولا يقبله العلم ، ولا يرضى عنه الشعور الإنسانى . بل إن فكرة الوحدة العربية التى تعلق عليها الأمم العربية آمالها لتحرر وتقوي وتستعيد مجدها الغابر ، لا يمكن أن تتخذ العصبية أو القومية لها سلماً . وليس من العقل والحكمة فى شىء أن يلهج بصددها بفكرة الجنس والعرق لأن الأقوام الآهلة بها البلاد الناطقة بالضاد مؤلفة من شتيت من الأجناس والأعراق . فالرابطة التى توحد بين أفراد كل أمة من هذه الأمم العربية ليست العصبية أو القومية ، والجامعة التى تقرب بين الدول والأقطار العربية لا يمكن أن تكون أسرة جنسية ، بل إنها رابطة سياسية عاطفية ، قائمة على الإرادة والشعور والمصلحة

اردت من عرض هذه الفكرة أو التذكير بها — لأنها ليست مجهولة — أن أؤيد ماجاء به الأستاذ الجليل من تفنيد التفريق بين أفراد الأمة الواحدة بحسب أصولهم ، وأبين الخطأ فى النظر — لقاسم أمين إذا عدّ كردياً — ولكل من يحسب غير عربى من أشباهه كرجل خامل بنسبه وإن كان نابهاً بحسبه .

فليس يضر القاسم الأمين رحمه الله أو غيره من رجال الأمم العربية أن يكون أصله كردياً ، بعد أن كان أمثال صلاح الدين بطل الشرق والاسلام والعرب ، وكثير ممن تلاه من الملوك الأيوبيين ذوى الفضل العميم على مصر والشام اكراداً ؛ بل له الفخر كل الفخر إذا جاز لانسان أن يفخر بأصله بجانب فضله أن يمت بالنسب إلى قوم أخرجوا أمثال هؤلاء الرجال وأشباه أولئك الأبطال الذين مازال تاريخ العرب والاسلام والانسانية يباهي بعظمتهم وعبقريتهم.

هذا وإني على يقين من أن الأستاذ العالم الجارم لم يقل البيت الذى حملنا على كتابة هذه الكلمة عن عصبيته ، أو إيمان بمذهب « القومية » بل اعتقادى أنه نظم هذا البيت من قصيدته تأثراً بنغمة طالما سمعها فى شعر العرب ، وتلذذاً من حيث لا يشعر بالطباق بين العجم (أو الكرد) والأعراب . وقصيدة شاعرنا اللغوى النحوى فى جلالة الملك فاروق سليل الأسرة العلوية الألبانية الأصل التى حبت مصر مجداً طريفاً يضاف إلى مجدها التالد ، دليل على أن العرب العاربة والعرب المستعربة فى نظره سواء

دمشق

محمد محسن البرازى
دكتور فى الحقوق
وأستاذ فى الجامعة السورية